جميع النصوص المكتوبة هنا هي نتاج ورشة حَبكة التي امتدت لمدة عام من آذار ٢٠١٨ حتى نهاية شباط ٢٠١٩ ضمن البرنامج الأدبي لمركز خليل السكاكيني الثقافي.

الفكرة الأساسية والتنسيق: الحارث ريان

المتابعة: لينا بني عودة

مدربو الكتابة: علي مواسي، جمال ضاهر، سهيلة عبد اللطيف

مدربو الأشكال الفنية الأُخرى: باسل نصر، إيهاب جاد الله، مايا أبو الحيات، دينا الشلة، مايا الخالدي، دالية طه

تدقيق لغوي: سهيلة عبد اللطيف

تصميم: يزن الخليلي

مركز خليل السكاكيني الثقافي، ٤ شارع الرجاء، الماصيون، رام الله، المنطقة أ، الضفة الغربية، فلسطين
www.sakakini.org

تم انتاج الورشة والكتاب بدعم من مؤسسة المجتمع المفتوح OSF

ISBN 978 9950 385 80 1

© ٢٠١٩ جميع الحقرق محفوظة للمؤلفين والناشرين، بما في ذلك حق إعادة إنتاج الاعمال كاملة أو مجتزأة، أو بأي شكل من الأشكال

حبكة
أو
مجموعة
قصص
قصيرة

لما رباح
فخري الصرداوي
مجدل الهندي
ديما السيلاوي
أحمد جمال
رغد هلال
وفاء سلام

مقدمة ٢

عبدو الصايم - لما رباح ٣

أبو كلسون - فخري الصرداوي ٧

إعادة تدوير - رغد هلال ١٧

شَظَفُ المَلاحِم (خماسية) - أحمد جمال ٢١

ليلة طويلة جداً - مجدل الهندي ٣١

من الشتات إلى الشتات - ديما السيلاوي ٣٩

كنزة - وفاء سلام ٤٣

مقدمة
فعل الكتابة
جمال ضاهر

عندما نكتب، يُرافقنا الإحساس بأننا نعيش آلام المخاض مثلما امرأة تصرخ، تضع مولودها بعد أشهر تسعة. تنظر إليه، لا تصدق عيناها جماله، لا تصدق أنه خرج من رحمها، أنه ابنها.

ننظر، نرى أمامنا جملاً موسيقية، نصاً مُكتمل الجمال لا يحتمل إزاحة، لا يحتمل اختزالاً لا يحتمل إضافة... والمعاني التي قمنا بتشكيلها، فكر وفلسفة، تعبر بأمانة متناهية الدقة عما نحس ونشعر.

«هل هذا وليدي، أنا»، نتساءل لا نكاد نصدق ما نقرأ، «والكلمات، مخارجها، كيف أتيت بها كيف اخترتها؟

أم أنها ليست مني؛ مصادفات تجمعت جعلتها تكون، مصادفات».

فنكون متأهبين لخوض حرب لا هوادة فيها، وعرة ضروس، فهي حروف نقشناها حرفاً حرفاً، هي مفردات مفردة وضعناها، جمل سكبناها. ونفقد حواسنا ونفقد صبرنا أمام النقد؛ لا نعود نسمع ولا نعود نقبل ولا نعود نفقه.

إلى أن نُدرك أنها الكلمات المخطوطات أمامنا ليست كلمات منزلات، فنبدأ نتعلم، ونشق الطريق إلينا.

عبدو الصايم
لما رباح

في بيت العزاء المقام لعبد الحليم، التزم المعزّون بارتداء ملابس ذات ألوان داكنة. مسحوا الابتسامات عن محيّاهم حال دخولهم إلى بيت الأجر مطأطئين رؤوسهم. تعابير وجوههم محايدة، وثابتة كتماثيل صخريّة. مدّوا أيديهم نحو أهل الفقيد تباعاً، أولئك المصطفّين كسلسلةٍ بشريّة قاتمة، فردّد المعزّون: «البقية بحياتكم، ويسلم راسكم».

لن تكون بقيّة حياة عبد الحليم في رصيد حيوات أيّ فرد من عائلته. لا أدري إن كان أصلاً سيوافق على التنازل لهم عن تلك السنوات التي كان سيعيشها، لو لم تنزلق قدمه في حوض الاستحمام. أمّا احتماليّة أن تسلم رؤوسهم، فمشكوك بها.

عبد الحليم لم يكن شخصاً لافتاً، على الأغلب سينساه أهل الحيّ بعد شهرين على أقصى تقدير. كان شاباً في الثلاثين من عمره، متوسّط الطول، يشغل وظيفة محاسب. باستثناء عينيه الواسعتين، كان مظهره رتيباً، ولا يشارك في الأحاديث العامة في المقاهي وسيارات الأجرة. عبدو كان من الأشخاص الذين يموتون ولم تُحببهم إلّا أمّهاتهم.

عادةً ما يخطفنا الموت برشاقة، أمّا الأصعب حقيقة هو العزاء؛ للأحياء منّا طبعاً. وصلة أداء الحزانى تلك لا رشاقة فيها؛ تُنتشل فيها الأجساد الثقيلة عن المقاعد وتتصافح الأيدي، بينما يتمتم المعزّون كلمتيْن على

الأقل لمواساة أهل الفقيد. لحُسن الحظّ، يَسَّرت ميتة عبد الحليم المهمّة، فمنح معزّيه هديّة خالدة تنقذهم من عناء الموقف وغرابته؛ ماتَ عبدو صباح السبت، الخامس من شهر رمضان، فأصبح بإمكان الجميع الاسترخاء والتصريح بثقةٍ مِراراً: «الحمد لله، نيّاله مات وهو صايم، لجنّات الخُلد إن شاء الله»، وكأنّه قديس مصطفى.

كانت ستكون مواساة ذهبيّة لو توفيَّ عبدو قبل ذلك بساعات والتحق بموتى يوم الجمعة: «الحمد لله، نيّاله مات برمضان، وهو صايم، يوم الجمعة، سبحان الله». مرّت ثلاثة أيّام من محاولات المواساة بنيّة صادقة غالباً، بائسة دوْماً، وأمّه تستمع بهدوء، وقلبُها يعتصر.

دخلت الأمّ غرفته بعد انقضاء أيّام العزاء، مثقلةً بالحزن وغالونات من القهوة المرّة، وجلست على سريره تطالع الجدران البيضاء النظيفة. لم يسبق لعبدو أن وضعَ أيّ ملصق. لم يُحبّ أيّ مطرب، ولم يشتهِ أيّ عارضة. عبثاً تحاول أمّه أن تسترجع ذكرى واحدة معه في هذه الغرفة. تتذكر فقط عناقاً واحداً على أعتابها حين نجحَ في امتحان الثانويّة العامّة. وبّخته حينها لأنّها اكتشفت أنّه رشّ من عطر أبيه الباهظ، مجدّداً. ندمت في أحيان كثيرة على توبيخه، لأنّه من بعدها بات يشتري عطراً رخيصاً يفوح برائحة الكزبرة وخشب الصندل. يثير الغثيان.

كادت تلك الرائحة أن تتلاشى من الغرفة في الأيام القليلة الأخيرة. نهضت الأم لتشمّ ثيابه، ففتحت خزانته ببطء. لم تمضِ دقيقة حتى أغلقتْ دفّتيْها. هبطتْ بجسدها على السرير مرّة أخرى، ثم غمغمت بصوتٍ مرتعش: «مات وهو صايم».

هي تعلمُ الآن لِمَ قضى عبدو ساعات طوال من أسبوعه الأخير في غرفته، على غير عادته. نظرت إلى الخزانة بعينيْن جاحظتيْن، تحاول استجماع قواها للوقوف على قدميْها، وسارت عائدةً إلى الخزانة بخطى متأرجحة. مدّت ذراعيْها إلى الرفّ العلويّ، وأخرجت رغيفَ خبز، وعلبةَ

جبنةٍ مفتوحة، وقنينةَ ماء شبه فارغة. ألقتها جميعها في كيس بلاستيكيّ أسود، وأحكمت إغلاقه. ركضت بالكيس إلى الباب. تلفتت حولها لتتأكد أنّ أحداً لا يراها، وألقت به في أقربِ حاوية قمامة. في طريق العودة، عرّجت على الجارات لتقول: «الحمد لله، مات ابني صايم».

أبو كلسون
فخري الصرداوي

١

لا يمكن لأي من الموظفين والدرك في مخفر حي العروة، حتى أكثرهم قرباً وثقة، أن يعلم أن العقيد رمزي عيلب يشعر بالضيق من سرواله الداخلي، والذي يحاصر المناطق الأكثر حساسية واستراتيجية في جسده. بالنسبة إلى العقيد، كانت معالجة مثل هذه الأمور بمثابة لعبة من ألعاب الخفة. كان بارعاً للغاية في المحافظة على رباطة الجأش واللباقة والهيبة، بينما، بحركة أنامل سريعة من فوق بنطال بدلته الراقية، يعيد تموضع سرواله الداخلي الذي يلتصق بمنطقة الحوض.

جلس العقيد رمزي عيلب وحيداً خلف مكتبه في ساعات المساء الأولى وهو يحملق في بطاقة الدعوة مرة أخرى ليقرأها، وكأنه يفعل ذلك لأول مرة. خلال أسبوع ستكرمه مؤسسة الوئام الدولية كشرطي العام. كان سعيداً ومتوتراً، وبالطبع يشعر بالضيق من سرواله الداخلي. ابتسم عندما تذكر نكتة أحد الكوميديين الذي قال إن الرجال يتشبثون بسراويلهم الداخلية حتى تصبح غباراً، وفكر في شراء مجموعة جديدة من السراويل الداخلية تأقلماً مع وزنه الذي ازداد منذ بداية العام بعدما ترقى ليصبح مديراً للمخفر. أما بالنسبة إلى عدد القضايا والشكاوى المرفوعة أمام المخفر، فقد ساهمت قلتها في زيادة وزنه!

كانت القضايا قليلة ومملة أيضاً، حتى النشالين والسراق العوام انتقلوا إلى أحياء أخرى بسبب سهولة التعرف عليهم من بعد في حيٍ راق جداً مثل حي العروة. نظر العقيد رمزي عيلب إلى الدعوة مرة أخرى وكأنه يقرأها لأول مرة. شعر وكأن فجوة صغيرة من الحزن انشقت في صدره. فالمؤسسة الدولية التي ستكرمه، على الأغلب، لا تعلم قلة القضايا وملل العمل في حي العروة، تماماً كما لا يعرف الموظفون والدرك مدى تضايقه من سرواله الداخلي.

إلا أن العقيد رمزي عيلب لم يعلم أن قضية غريبة جداً، قضية السيد لبيب الطالع، على وشك أن تفتح وتغلق في ذاك المساء أمام مخفر حي العروة.

٢

كان لدى كل من العائلة والأصدقاء والزملاء اعتقاد بأن السيد لبيب الطالع معتوه. كان يمكن الادعاء بأن الأمر اعتيادي لأن معظم ذكور البلاد يهرولون في جميع الأنحاء كالمعاتيه، لكن العائلة والأصدقاء والزملاء تجاوزوا هذه المرحلة، ونظّروا بأن السيد لبيب الطالع هو بحد ذاته حالة مميزة تستحق الدراسة على حدى.

الآنسة شيماء الساقي كانت عنيدة تحب التحديات، لذلك انتابها فضول شديد لدراسة ومعالجة حالة السيد لبيب الطالع. تم تحذيرها في مناسبة أو اثنتين من التلاعب مع حالته، وتم إفهامها أن عمله كموظف تحصيل في أحد المصارف، والذي أعطاه القدرة على تجريد أي رجل من كل ممتلكاته إلا سرواله الداخلي، هو ما جعله يفقد نصف عقله. بل حُذرت في إحدى المرات من أنه على وشك أن يفقد النصف الآخر في أي لحظة!

تجاهلت الآنسة شيماء الساقي تلك التحذيرات عندما جرت ساقه

ليخطبها من أهلها، من ثم حاولت إعادة تصميمه على مقاسها. نصحته، من ثم أمرته، بالتخلي عن بدلاته العتيقة لأنها لا تريد أن تشعر بأنها تواعد جده في كل مرة فيها يلتقيان. وأمرته برمي ربطات عنقه العريضة كلها لأنها تخجل من المشي بجانب شاب يلبس طائرات ورقية على صدره. وأمرته بالتخلص من شواربه لأنها تذكره بحقبة الثمانينات وجرائم الموضة المرتكبة فيها. بالمقابل، أمرته أن يشتري أغلى الملابس وأشهرها ماركةً وأحسنها طرازاً.

«هو متطلب أساسي في مجتمعنا»، كانت تقول له.

«لا تكلميني وكأنني لا أمشي بالشوارع إلا بالكلسون!» كان يجيبها.

فقد المسؤولون المباشرون للسيد لبيب الطالع الأمل في أن يلبس ما يريدون، فطردوه من العمل. كانت تلك هي المناسبة التي حملت الآنسة شيماء الساقي على طرده من حياتها الشخصية، ليس فقط لأنها تخاف الفقر وتكره العاطلين عن العمل، بل لأنها، كمدرائه في العمل، أيقنت استحالة إقناعه بالدخول إلى غرفة قياس الملابس ليخرج منها شخصاً جديداً على هواها.

اتصلت الآنسة شيماء الساقي بالسيد لبيب الطالع كي تخبره أنها قررت إنهاء العلاقة. «هل تريدين تركي لهذا السبب يا شيماء؟ الناس كلهم تافهون وملابسهم لا تعني شيئاً! الجميع في الحقيقة كلاسينهم مهترئة!» قال السيد لبيب الطالع قبل أن أغلق سماعة الهاتف غاضباً. استيقظ في ذات الليلة وهو يشعر بضيق بالتنفس، وكأن رئتيه تغرقان في كتلة من الرمل الأسود. أدرك أن أقرب عناق حميم بات يقع على بعد سنوات من تلك اللحظة.

في فترة انقطاع دامت بضعة أشهر، حاول السيد لبيب الطالع أن يتواصل مع الآنسة شيماء الساقي عدة مرات. نجح في إقناعها بملاقاته في أحد

مقاهي حي العروة. ومن أجل هذا الموعد المهم قرر أن يتنازل عن مبادئه وأن يجدد نفسه على مقاسها. فقد طلب من الحلاق أن يخفف من كثافة شواربه بعدما لم يجرؤ على محيها تماماً عن وجهه، واشترى بدلة جديدة من جاره المعلم وليد جمجوم، الذي لم ينفك يسأله «لماذا لا تزورنا» في إشارة إلى زيارة «اقتصادية» إلى المتجر لا «اجتماعية» إلى البيت.

جلس السيد لبيب الطالع على طاولته منتظراً قهوته وهو يتمرن على حديثه مع الآنسة شيماء الساقي وكأنه يتحضر لمقابلة عمل. حاول تذكير نفسه بما سيقول، كيف أنه سيخبرها أنه سوف يجري مقابلة عمل فعلاً بعد بضعة أيام مع مؤسسة الوئام الدولية، وكيف سيتغير وسيشتري ملابس جديدة كل أسبوع، وكيف أنه سيحب التجوال في مراكز التسوق فقط إن كانت هي بجانبه.

ظهرت الآنسة شيماء الساقي من بعيد في الطرف المقابل من الشارع، فسمحت له عيناه أن يشم عبق عطرها قبل أن يشمه بالفعل. عندما شاهدها تعبر الشارع، نسي أنها ابنة الأبله تيمور الساقي والمتعجرفة ثرية الساقي، بل أمست بفستانها الأزرق الفاتح المرقط بالأبيض ابنة سحابة الربيع ونسيم الصيف. كانت يوماً مثالياً يقع بين الفصلين، أغنية مكسيكية في الخامس من مايو، لا يفهمها ولكن لا يريد لها أن تنتهي. كانت، وهي تدخل المقهى بوصول قدح القهوة إلى طاولته، قهوة لا برازيلية ولا يمنية، توقظ روحه الهاجعة منذ بضع قرون. كانت... «رومنسيات فارغة، جميعها رومنسيات فارغة يا أيها البغل»، فكر السيد لبيب الطالع بعدما أخبرته الآنسة شيماء الساقي بفجاجة أنها على وشك أن تخطب شخصاً آخر غيوراً بعض الشيء، ولذا عليه أن يتوقف عن الاتصال بها وإرسال الرسائل إليها. بل وقامت بكل وقاحة، وكأن السيد لبيب الطالع هو الآنسة سوسن الطالع، باستعراض صور الشاب

الجديد على هاتفها النقال والذي تبين أنه شديد الأناقة، تماماً على مقاسها.

بعد أن خرجت الآنسة شيماء الساقي من المقهى، لبث السيد لبيب الطالع في مكانه مصعوقاً، وكأن قطاراً ضخماً من المشاعر المؤلمة يصدم روحه مرة كل دقيقتين. بقي كذلك عدة دقائق حتى جاءته رسالة نصية من الآنسة شيماء الساقي:

«هنالك عروض تنزيلات على ماركات رائعة في متجر الملابس الرجالية المقابل لمخفر حي العروة».

وصلت رسالة أخرى بعد نصف دقيقة:

«كنت خجلة من أن أخبرك: هذه البدلة التي يبدو أنك استعرتها من صديقك جيدة، ولكنهم توقفوا عن لبسها منذ ثلاث سنوات. قلت لك من قبل: هذا متطلب أساسي في مجتمعنا، اذهب إلى ذاك المتجر وغيّر من عادات اللباس لديك واحلق شواربك وستعثر على فتاة أخرى وحياة أفضل. الأمر بتلك البساطة».

شعر السيد لبيب الطالع وكأن روحه مادة مطاطية ثقيلة تنتفخ بسرعة داخل جسده الضيق. أصبحت الآنسة شيماء الساقي مثل عائلته وأصدقائه وزملائه، محض غرباء منافقين يحاولون إصلاحه من بعيد. كرهها وكرههم، ولكنه كره نفسه أكثر لأنه موجود داخل هذه البدلة. ليس لأن المعلم وليد جمجوم قد باعه إياها قديمة بسعر واحدة جديدة، بل لأنه باع جزءاً من نفسه هذا اليوم فقط في مقابل أن يبيع كل شيء غداً.

نعظ السيد لبيب الطالع عن كرسيه، وخلع ملابسه على نحو أسرع من أن يدرك الزبائن والعاملون في المقهى ماذا يحدث بالضبط. أكمل تعرية نفسه حتى لم يبق على جسده إلا سروال داخلي عليه رسومات فسفورية

لحيوانات نعسة وبيوت دافئة وهلال ليلة هادئة. وقف فارداً رجليه، وأشار بيده إلى الزبائن والعاملين في المقهى وكأنه مدفع مضاد للجو، وصرخ بصوت حزين محموم: «هل أنا أنيق الآن يا أصحاب الكلاسين المهترئة!»، قبل أن هرع كاسياً عارياً خارج المقهى.

٣

عدّل العقيد رمزي عيلب من جلسته على مكتبه، وسعل مرتين وكأنه على وشك إلقاء خطاب قبل أن رفع سماعة الهاتف كي يتصل بالأستاذ بسّام سفرجل صاحب متجر الملابس الرجالية المقابل للمخفر. أراد أن يسأله فيم إذا كان لديه مجموعة من السراويل الداخلية المريحة، إلا أنه أغلق السماعة سريعاً، فالهاتف قد يكون مراقباً، ولا يمكن لأي من الموظفين والدرك في المخفر أن يعلم أن العقيد متضايق من سرواله الداخلي.

التقط الهاتف النقال لذات الغاية، ولكنه عدل عن ذلك أيضاً، فلا يمكن لأي موظف في أحد الأجهزة الأمنية، على كثرتها، أن يعلم أن العقيد متضايق من سرواله الداخلي!

الشخصان الوحيدان في العالم اللذان يمكنهما معرفة مثل هذه الأسرار هي شريكته في الحياة: السيدة بحتية عيلب، وقدوته في الحياة: الأستاذ بسام سفرجل.

لا يستطيع العقيد رمزي عيلب أن ينسى اليوم الذي التقى فيه الأستاذ بسّام سفرجل قبل عقدين، عندما كان المخفر ومتجر الملابس المبنيين الوحيدين القائمين في حي العروة. حينها، كان محض شرطي بسيط نحيف يحب الوقوف متفرجاً أمام نوافذ عرض الملابس. في إحدى تلك المرات، انفتح باب المتجر فجأة بقوة وخرج منه رجل كهل أنيق، نظر إلى الشرطي ولم يقل كلمة «تفضل» كما يفعل مع الغرباء، بل قال له وكأنه

يعرفه منذ وقت بعيد: «تعال تعال، الحق بي إلى الداخل».

غاص العقيد رمزي عيلب في تلك الذكريات حتى جاءت رنة هاتف المكتب في المخفر كي تنتشله من سهوته. عدل من جلسته وسعل مرتين قبل أن رفع السماعة: لقد هاجم أحدهم متجر الأستاذ بسّام سفرجل.

خفق قلب العقيد بسرعة نفضت الخمول والكسل عن روحه. أمر العناصر بالتوجه فوراً إلى مكان الحادثة قبل أن يغلق سماعة الهاتف ويخرج الناظور من جارور المكتب ويتوجه إلى النافذة ليراقب الموقف، وكأنه قائد جيش في معركة. أمام المتجر، كان هنالك تجمهر من الغرباء الذين لا يجمعهم بالعقيد إلا الفضول الشديد. لاحظ على الرصيف حطام زجاج نافذة ينتثر على الأرض كحبيبات البرد، ودمى عرض ساقطة على الأرض كتماثيل الطغاة، وقطع ملابس مبعثرة في الأنحاء كجثث ما بعد مجزرة.

باغتت قوة الشرطة ذاك المكان وكأنهم قطيع غاضب من الفيلة، فأفسح لهم الطريق جزء من المتجمهرين، بينما شرع الجزء الآخر يغادر المكان. لم تمر دقيقتان حتى خرجوا من المتجر يقتادون ذلك الذي سبب كل تلك المشاكل. انعقد اتفاق عفويٌ غير مكتوب بين الموظفين والدرك على تلقيب المقبوض عليه بأبي كلسون. ومع أنهم عثروا على ملابسه وصورة هويته واسمه الرباعي، لبيب ممدوح لبيب الطالع، في أحد المقاهي القريبة، إلا أن الألقاب أقوى من الأسماء؛ أبو كلسون.

تسبب أبو كلسون بحالة من الفوضى والهرج والمزاح في أنحاء المخفر. انزعج العقيد رمزي عيلب من تلك البلبلة التي وصل وقعها إلى مكتبه. خرج من هناك ونزل بيت الدرج إلى الطابق الأول وهو يحاول التعديل من مشيته العرجاء بسبب اختناق محاشمه من سرواله الداخلي الضيق. فتح الباب وهلّ فجأة على غرفة استقبال المخفر فصمت الجميع، إلا أنهم فشلوا في محو الابتسامات الساخرة عن أفواههم.

«أين هو!»، قال بنبرة ووجه صارمين.

«في غرفة التحقيق يا سيدي»، أجاب أحد الموظفين.

جلس أبو كلسون على طاولة مكبلاً، وبطانية تغطي جسده وكأنه وغد مقبوض عليه في قضية دعارة. لم يبدِ أية ردة فعل لدى دخول العقيد، بل أكمل التحديق في الأفق وهو يهز رجله اليمنى بسرعة.

أما الضباط الواقفون في الغرفة فقد تهامسوا تساؤلاً عن سبب انخراط العقيد بالتحقيق بجريمة سخيفة لا تستحق العناء، ربما بسبب صداقته مع الأستاذ بسام سفرجل، أو لأن الجريمة المرتكبة قد تكون أمنية وليست جنائية، أو لأنه يشعر بالملل فحسب كما هو معروف.

جلس العقيد على الطرف الآخر من الطاولة، واصطف وراءه الضباط.

«أنت هالك لا محالة أيها الفتى»، قال العقيد.

لم يجب أبو كلسون.

«أعرف أنك ستقول لي أن لا أسباب سياسية وراء فعلتك هذه، ولكنك ذكرتني بقصة شاب رفض لبس السراويل في أواخر زمن السلطنة العثمانية».

«وما علاقة كلسوني؟»، أجاب أبو كلسون.

«كلاكما اتخذ قراراً سياساً. هو رفض التجنيد الإجباري لأنه امتنع عن لبس السراويل، وأنت رفضت السلامة والنظام والأمن العام عندما خلعت بنطالك».

«إذن كل القرارات التي نتخذها وكل الأشياء التي نرتديها بما فيها كلسوني هي قرار سياسي، أليس كذلك؟»

«بالضبط! ولهذا انت هالك لا محالة عندما أحيلك إلى جهاز أقل لطفاً

من مخفرنا هذا».

«إذن، أرجو من سيادتك أن تطلب من موظفيك تسجيل موقفي السياسي».

شعر العقيد رمزي عيلب بغبطة لأنه سيتحصل على اعتراف مكتوب من الجاني.

«لأن أناقتكم هي أناقة الموتى، وحياتكم المريحة في ملابسكم هي محض رحلة خارج أرض معركة خاسرة داخل تابوت حانوتي، فإنني أعلن أنني لن ألبس إلا الكلاسين بعد اليوم!»

بسبب كل ذلك الحديث عن السراويل الداخلية، لم يستطع العقيد أن يصبر أكثر. كلاعب خفة محترف، قام بإعادة تعديل موضع ملبسه الداخلي بحركة أنامل سريعة من فوق بنطال بدلته. توقف أبو كلسون عن هز رجله وخيم سواد بؤبؤيه في عينيه عندما رصد تلك الحركة كبومة في ليلة حالكة.

«سيادتك! هل أنت متضايق من كلسونك؟»

«ماذا؟!»

«إذا كنت تشعر بالضيق، بإمكاني أن أعيرك كلسوني، أو بإمكاننا الذهاب معاً إلى المتجر القريب لشراء كلاسين جديدة!».

أصدر العقيد في مساء ذلك اليوم قراراً بإحالة أبي كلسون إلى المحكمة المختصة، مع التوصية بعرضه على أخصائي نفسي وإصدار قرار بإرساله إلى مصحة عقلية، ذلك لأن المجرمين الجنائيين والأمنيين عاقلون يؤخذون بجدية، أما المجانين فكل كلامهم هتر، ولا يمكن لأي من الموظفين والدرك في مخفر حي العروة أن يصدق افتراء أبي كلسون المجنون أن العقيد متضايق من سرواله الداخلي.

وفي اليوم التالي أصدر العقيد قراراً بحجز عدد من الموظفين والدرك في القشلاق لمدة يومين، لأنهم تحدثوا عن شرائه لكميات كبيرة من الملابس من متجر الأستاذ بسام سفرجل بما يشتمل على رزمة من السراويل الداخلية. وفي اليوم الذي جاء بعده أصدر قراراً ضد أحد رجال الدرك بالتدريبات الإضافية الشاقة، عقاباً على الابتسامة الساخرة على وجهه. وفي اليوم الذي جاء بعده أصدر العقيد قراراً بتخفيض رتبة الضابط الذي تحدث عن موضوع «أبو كلسون» بناء على إخبارية «موثوقة» من ضابط آخر. وفي اليوم الذي جاء بعده اجتمع العقيد بضباطه وأمرهم بالتخلف عن مرافقته إلى مؤسسة الوئام الدولية لتسلم جائزة شرطي العام وبمنع أي موظف أو دركي من الحضور تحت طائلة العقوبة. وفي اليوم الذي جاء بعده أكدت عدة مصادر موثوقة في أنحاء المخفر أن العقيد رمزي عيلب لم يجلب معه إلى الحفل إلا زوجته السيدة بحتية عيلب وصديقه الأستاذ بسام سفرجل.

إعادة تدوير
رغد هلال

أسرد هذه القصة عن عائلة عادية، عائلة أبي رامي. هذه العائلة ليست من العائلات التي ستفاجئك بتصرفاتها أو بشخوص أفرادها، لأنها عائلة مملة لدرجة أن أحداً لن يفكر في الكتابة عنها، ولكنك إذا أمعنت النظر واقتربت من التفاصيل، سوف تلاحظ غرابة المألوف.

١

يوم عادي، الشمس في رحلتها للصعود، أو كما يقول الفراعنة: إن رع فاز في معركته على أبوفيس، فتشتعل الأفران في المخابز، ورائحة القهوة تأخذ بالانتشار. تستيقظ لبنى على صوت الخلاط ككل صباح. تحرك جسدها الممدد كالجثث تحت الفراش دون أن تفتح عينيها، فهي تنتظر والدتها التي ستدخل بعد ثلاث اثنان واحد؛ « لبنى استيقظي»، لترسم لبنى على فمها هلالاً بأسنان. تستجمع قواها وتنهض متوجهة نحو الحمام. كلما تقترب منه تبدأ بالركض بخفة لكي تسبق رامي في الوصول، لكنه يستطيع اللحاق بها، ليبدأ جدالهما الذي ينتهي بدخول رامي أولاً.

إن لبنى في السابعة عشرة من عمرها، وهذا عامها الأخير في المدرسة. قرار تخصصها المستقبلي في الجامعة بدأ يشكل تحدياً جدياً بالنسبة لها، وضغْط والدتها بأن تصبح ممرضة مثلها يخنقها. في المقابل ترى بأن لقب «مهندسة» الذي تحلم به يُعطى لأخيها.

«لبنى استيقظي».

أما اليوم، فلقد توجهت لبنى إلى المطبخ مباشرةً متجنبة الشجار اليومي مع رامي. وجدت والدتها منهمكة في تنظيف الأطباق، عيناها تتأرجحان بين النظر إلى الساعة والمجلى، وعقلها في عالم آخر. ألقت لبنى نظرة إلى المطبخ، وكأن قنبلة من المهام انفجرت في أنحائه. لاحظت طبق الحلويات المفضل لدى جدتها مستريحاً على المائدة، وحينها فهمت التوتر الذي امتلك ملامح والدتها.

أيها القارئ، إن جدة لبنى ووالدتها على شجار دائم، ففي كل مرة تأتي فيها الجدة للزيارة تنتقد ابنتها في كل شيء، كترتيبها للمنزل، إنفاقها لمصروفه، سلوكها مع رامي ولبنى، حتى لباسها لم يسلم من التعليقات الجارحة الموجهة نحوه. هذا المكان شهد جميع النزاعات بينهما، وبقي صامتاً دون أي تعليق.

انزلق الطبق من يدي والدة لبنى عند سماعها صوت الهاتف. استعجلت في الرد لكي لا يوقظ رنين الهاتف زوجها. كانت لبنى تسترجع نقاشها الدائم مع والدتها حول رغبتها في دراسة هندسة الكهرباء، فكل فرد من العائلة قد قدم رأيه في هذا الموضوع، مدّعين بأنهم تركوا للبنى الخيار الأخير في الاختيار، ولكنها تعلم في صميم قلبها أنهم لن يسمحوا لها باختيار وظيفة «غير مناسبة» لفتاة «رقيقة» مثلها.

٢

يوم عادي، الشمس في رحلتها للصعود، أو كما يقول الفراعنة: إن رع فاز في معركته على أبوفيس، فتشتعل الأفران في المخابز، ورائحة القهوة تأخذ بالانتشار. يستقيظ رامي بسبب أشعة الشمس المزعجة. تدق والدته الباب: «أسرع». يستعجل في النهوض عند سماعه خطوات أخته لبنى المتجهة إلى الحمام. يستجمع قواه، ويذهب راكضاً لكي يسبقها. يتجادل

معها، ثم يدخل أولاً.

إن رامي في الرابعة عشرة من عمره. ينظر كل يوم في المرآة، ويتأمل وجهه الخالي من الشعر. لطالما قارن رامي نفسه بأولاد صفه في المدرسة، فقد وُصف أكثر من مرة بأنه أقل رجولة منهم. لذا، يدخل كل يوم إلى الحمام، ويبدأ بحلاقة الشعيرات القليلة الموجودة، على أمل بأن تنمو أخرى أطول حجماً وأكثف. منذ أصبح رامي في الثانية عشرة من عمره، بدأ أبوه بمناولته شفرة الحلاقة ودعوته إلى التقليد. ومع هذه العادة صار رامي يشعر بالضغط مِن مَن حوله لكي يتشبه بوالده.

«لبنى استيقظي».

أما اليوم، فقد دخل رامي إلى الحمام دون الشجار المعتاد. وجد إسوارته على الرف تنتظره لكي يرتديها. لبسها متردداً وأخفاها تحت قميص المدرسة لكي لا يراها أحد، ففي حال رأتها معلمته سوف تصادرها منه. أما القلق الأكبر يكمن من ردة فعل والده، فسبق له أن علق عليها عندما رآها على معصم رامي، ونصحه بأن ينزعها مضيفاً: «هكذا لن تعجب بك الفتيات يا رامي».

أيها القارئ، إن جدة رامي تزور أحفادها كل أسبوع، تجلس ساعات طويلة لتتحدث معه ومع لبنى. لطالما أحب رامي قدوم جدته إلى المنزل، فهي تدلله وتلقبه دوماً بمهندس العائلة، ما يُفضي عليه الشعور بالفخر والاعتزاز. وعندما تهم بالرحيل، توصي لبنى ورامي بأن يهتما بدروسهما، وبأن يعتني رامي بأخته لبنى.

خرج رامي من الحمام وفرح بوجود طبق الفطور بانتظاره على المائدة. زاد فرحه بعدما رأى طبق الحلويات الخاص بجدته مزيناً وينتظر قدومها. ابتعد عن المقعد المخصص لوالده، وأزاح طبق لبنى وجلس مكانها. هو يريد الجلوس بهدوء، ومشاهدة مباراة كرة القدم المعادة على التلفاز.

٣

دقت الجدة جرس المنزل. فتحت الباب دون أن تنتظر أحداً ليستقبلها. توجهت الضيفة ذات الشعر الرمادي والتجاعيد المشدودة إلى المطبخ، تتفحص جميع المنزل بطريقها بدقة. ترتب الوسائد الموجودة على الأريكة في غرفة الجلوس، ثم تدخل المطبخ لكي تُستقبل كعادتها بابتسامات من لبنى ورامي، وإشارة باليد من ابنتها المنهمكة في أشغالها.

سمع أبو رامي صوت الجدة قادماً من المطبخ. شدّ على عينيه المغلقتين كعلامة رفض للواقع الذي سقط عليه بوجودها. حاول جاهداً العودة إلى عالم الأحلام، ولكن رائحة عطرها المطبوعة في ذاكرته تمنعه. أدار رأسه ليغمسه في الوسادة التي تحولت إلى قالب لوجهه. يدور صراع في رأسه، هل عليه الخروج لاستقبالها أم يبقى في سريره متظاهراً بالنوم.

في حين يدور الصراع في داخل أبو رامي، يوجد صراع من نوع آخر دائر في المطبخ. والدة لبنى والجدة تتشاجران حول ترتيب الأطباق الموجودة داخل إحدى الخزائن؛ الجدة تعطي رأيها وابتسامة تملأ وجهها، ووالدة لبنى تحاول إقناعها بانفعال شديد حتى يتحول حاجباها من لونهما الطبيعي إلى المحمر.

أنا هنا أيها القارئ، أنظر إلى هذه العائلة العادية، تعيش يومها المعتاد، بتبادل الأحاديث التقليدية التي يكمنها صراع مبطن، أتساءل فيما إذا سيشهد هذا المطبخ توقفاً في عملية إعادة التدوير، أم ستبقى أزلية، لها بداية ولكنها لا تنتهي.

ذهب رامي ولبنى إلى المدرسة، تاركين الجدة ووالدتهما في المطبخ تعيدان ترتيب الأطباق، ووالدهما يتظاهر بالنوم في الداخل، لا يرغب بالخروج.

شَظَفُ الَملاحِم (خماسية)
أحمد جمال

نضال

إنها الليلة الثانية للأحداث. في الأمس، بدأ جيش الاحتلال بعملية الاجتياح. هَبَّ الشبان محاولين التصدي للآليات العسكرية على مداخل المدينة.

كان الصمت جاثماً وكأن وباء حل بها ولم يُبق فيها بشر. تبدّى صوت قادم من بعيد إلى الآذان. دوي الصوت يتضحُ أكثر. البيوت على جانبي الطريق أصبحت تهتز مع مرور الدبابات بمحاذاتها. فقط أصوات جنازير الآليات العسكرية المحتكة بالإسفلت حاضرة في هذه الليلة.

قفز نضال من مكانه إلى النافذة المطلة على الشارع الرئيسي مع سماع هدير الأصوات في الخارج. رفع الستار، وألقى نظرة بحذر. «الجند يفيضون في الشارع، الدبابات تنتشر في كل زقاق. لقد حولوا الحي إلى ثكنة عسكرية»، قال مخاطباً والديه، محذراً إياهما من الاقتراب، يطلب منهما أخذ الحيطة عند السير بجانب النوافذ.

أضواء الكشافات التي يحملها الجنود تتنقل بين نوافذ البيوت باحثة عن جسد حي لترديه قتيلاً.

ظلّ أفراد العائلة مستيقظين، متتبعين أخبار البلاد المنهكة في هذا الوقت، وسكون الليل يحمل أصوات اشتباكات متفرقة تبدو بأنها آتية من الجهة الغربية للمدينة، أصواتاً أيقظت لُب نضال، وأشعلته.

رصاص الفداء

ينقل المدى إلى الأبصار أطراف المدينة. مصابيحها المعلقة في الهواء وبيوتها التي تَصطف أسراباً تتقلص كلما ابتعدت رؤاها عن العين، ومآذنها أعمدة مفرَّقة، وبعض قباب حدباء لا لون فيها ولا صوت لها يسمع.

اعتلت الشمس السماء لتعلن للشبان المجتمعين على قمة الجبل بداية نهار جديد، اعتادوا على تكرار أحداثه مع مرور الوقت. في الصباح يتحضرون في صفوف تمتشق البنادق، يتناولون بعض أرغفة الخبز المرطبة بالماء طعاماً، ويفترشون الأرض أسرة في ظل الأشجار الكثيفة الشاهقة.

أصبح الجبل مأواهم ومسكنهم.

خلال النهار تنقل أبو مرزوق بمشيته المترنحة بين صفوف المقاتلين، الجدد، ليشرف على تدريبهم كما يفعل في كل يوم. أبو مرزوق رجل في الخمسين من العمر، قوي البنية، طويل الجسد، ذو ملامح صارمة برغم شخصيته التي لا تخلو من الطيبة. قد خاض في زمانه معارك عدة جعلته يكتسب خبرة عالية في القتال، وهو لا يكتفي أبداً بالحديث عنها أمام المقاتلين، متفاخراً بتاريخه وتجاربه الكثيرة، خاصة تلك المعركة التي أصيب فيها بقذيفة جعلته أعرج، يمشي على ساق واحدة وعصا تسند ميلان جسده.

عند ساعات الليل يمضون في طريقهم نحو المدينة التي أصبحت مرتعاً لجنود الاحتلال، فهم من دون الوصول إليها لن يتمكنوا من الاستمرار في القتال، فهي تزودهم بالخبز وبالرصاص، وفِي زقاقها يستهدفون الدوريات العسكرية وبعض جنود المشاة المنتشرين بين البيوت.

خطى المدينة

هدوء يعم المدينة وأحاديث كثيرة تنتشر. منذ أسبوع أقدم سعيد، وهو من سكان أحد أحيائها، على استهداف دورية احتلالية، وأصاب أحد الجنود. أُعلِن عن مقتل الجندي بُعيد وقوع العملية. أغلقت الطرق منها وإليها. نصبت الحواجز في كل مكان. اكتظت مداخلها بطوابير من البشر ينتظرون دورهم في التفتيش حتى يتمكنوا من الوصول إلى منازلهم.

يدرك كل من في المدينة، ومن وصله الخبر، أن العواقب لن تطارد سعيد لوحده.

داهم جنود الاحتلال بيوت العائلة، وكل بيت في المدينة تفتش دون أثر كان لسعيد. توالت الاعتقالات لكل من ربطتهم علاقة به. وأم سعيد بجسدها السَقِم، وانحناءة ظهرها، وعكازها الذي لا يفارق يدها، كل هذا لم يمنع الجند من اعتقالها.

مجموعة من الجنود أحاطت بها متجهة نحو آلية الاعتقال.

فُتح باب الزنزانة. وضعوا طبق الطعام ورغيف خبز فوقه. أخذت أم سعيد الرغيف بيدها، ووضعته جانباً وقالت في سرها: «أيزال حيًا؟». لقد امتنعت عن الطعام والشراب منذ دخولها مركز التحقيق. فُتح الباب مرة أخرى وأخذوها إلى غرفة الاستجواب، لتبدأ الأسئلة المعتادة: أين سعيد؟ متى آخر مرة رأيتِه فيها؟ أين تخبئينه؟ في الغرفة أربعة محققين أجاد كل واحد منهم لعب دوره ببراعة، فلا ينتهي الأول من توجيه الأسئلة بهدوء حتى ينقض الثاني عليها بالشتائم والصريخ.

مضت ساعات على التحقيق لما أعادوها إلى الزنزانة فاقدة توازنها من شدة التعب.

تركت أم سعيد في الزنزانة وحيدة تائهة لا تعلم الليل من النهار. أرض

بمساحة الجسد تعلوها فرشة رقيقة نتنة تفترشها للنوم. لا وقت يمر من حولها، لا ونيس لها سوى أربعة جدران تخاطبها باليدين. هكذا تظل إلى أن يُفتح باب الزنزانة في اليوم التالي، وتتكرر الفصول نفسها دون كلل أو ملل.

بعد أسابيع حاصر جنود الاحتلال سعيد في إحدى البلدات المجاورة. قيل إن أربعين رصاصة اخترقت جسده. ولم يكتفِ الاحتلال بأخذ القصاص من الأرواح والأجساد، ففي ساعة متأخرة من إحدى الليالي تقدم فيلق من الجيش، اقتحم منزل العائلة وطرد منه ساكنيه. عند كل ذكرى لأهل البيت نبتت، زرعوا قنبلة متفجرة. في ضغطة واحدة سويَ البيت بالأرض. غيوم الغبار تصاعدت منه محلقة فوق المدينة تخبر كل من لم يرى التفجير بعينيه أن البيت أصبح الآن أكواماً من الحجارة، أصبح ركاماً في الأرض.

لم تخرج أم سعيد من الأسر. حتى سعيد اعتقل جثة من بعد قتله.

حصار

بدأ الحصار ببطء يقترب، يقترب. أغلقت السبل من حولهم.

أرجع رأسه إلى الخلف متكئاً على جذع شجرة. عصر بيديه معدته لعل الأصوات الصادرة منها تصمت. شب واقفاً مستنداً على بارودته، فجلوسه مترقباً ما سيحدث دون تدخل يجعلها كأية عصى لا وظيفة لها سوى التعكز.

سار باتجاه زجاجة الماء وأخذ آخر رشفة خَضَّل بها شفتيه، ثم ألقى بنظره أسفل الجبل. حصار مطبق، عشرات الدوريات تلتف حولهم كالجدار العازل. نظر إلى رفاقه. كانوا يبدون جثثاً هامدة، بطونهم فارغة كبئر جوفاء، سيأكلون الصخر على أن يموتوا جوعاً وعطشاً.

كل يوم يمر عليهم دون طعام أو شراب تضمر فيه قواهم أضعاف ما قبله، فيغدون فريسة هشة لا تقوى على المقاومة.

أطال النظر نحو رفاقه وقال:

- سأتسلل.

كان الجواب حاضراً من أحدهم:

- الحصار مطبق، لا تجهد نفسك.

يرد:

- نحاول. تفتعلون اشتباكاً من جهة الجنوب وأتسلل شمالاً.

ما أن أطلقوا بضع طلقات حتى فتح وابل من الرصاص، وأخذ الجنود بالتحرك نحو مصدر الصوت. انطلق هو كالسهم لا يلتفت خلفه حتى اختفى أثره بين الأشجار، ومصيره عُلِّق بين الرصاص. حي بقي أم مات؟

هجرة البيوت بقاء الأقحوان

وجوم مميت يحضر في طرقات البلدة. كل شيء جامد لا حياة فيه، البيوت التي تكسوها الحجارة القديمة، الأرض وما عليها والسماء من فوقها. لم يتبقَ أحد من ساكنيها بعد أن أحدقت المستعمرات بالبلدة من كل صوب، وهُجر من كان يسكنها مع مرور الوقت.

وحيدًا بقي أبو جميل في منزله الواسع المحاط بمساحة خضراء تزينها أشجار اللوز. كبقاء الأقحوان الممتد في الأرض المتروكة، لَبِث هو وزوجته فقط في بلدة تتسع لآلاف البشر. عُزل، سُيج بيته بالأسلاك الشائكة، منع من الدخول والخروج إلا بقرار عسكري تحدد فيه أوقات الذهاب والإياب، وحارسان لا يفارقان مدخل البيت للتفتيش.

ألفوا حياة كهذه يملؤها الحذر، حياة يضطرون فيها البقاء داخل أسوار البيت حتى لا يُسلب منهم ما تبقى لهم. فطوال سنين مضت لم يُترك البيت خالياً تماماً، كان أحدهما يلازمه إذا ما خرج الآخر. حياة معزولة، خروج كليهما يعني رحيلهما عن البلدة دون عودة. المحتل لا يكف عن الحضور في كل ليلة، سوى يوم السبت، لتخريب البيت ومحتوياته، مستوطن لم يبلغ عام الرشد بعد يصول ويجول حول البيت برفقة أقرانه، لا يترك حجراً على حالهِ، ولا شجراً يَرحم.

عشر سنوات على حياتهما في قرية مهجورة منسية، يقتلها البرد والأرق، يكسوها التعب والخراب، يطوف فيها السكون وهرج المستوطنين. يسير أبو جميل في طرقاتها كل فترة، هنا كان دكان القرية، وهنا كان المقهى، عند هذا الزقاق كان يجلس مروان الخضرجي مع جيرانه لشرب القهوة. أصوات الأطفال كانت حاضرة طوال الطريق من قبل. يلقي السلام على كل شيء يقع نظره عليه، لا رد.

يجيء المخاض في غير موعده مبكراً، ستضع أم جميل مولودتها الجديدة.

الوقت يقترب من الفجر. وحيدة وزوجها داخل أسوار البيت.

خروجها في وقت كهذا بحاجة إلى قرار عسكري، قد يأخذ ساعات أو أياماً ليصدر.

يصدح صراخها في البلدة، صراخ حاد متقطع يتردد في كل بيت وكأن البيوت ترد عليها بمثل الألم، حتى يصل إلى المستعمرات فيخرج من فيها إلى البلدة جماعات ظناً منهم أن السكان عادوا.

يحيطون البيت، يبدأون بالزعيق، يقطعون مصدر الماء عنه، يرشقون الحجارة على النوافذ، يطرقون الأبواب، يشعلون النيران في الأشجار، يدمرون، يكسرون، يخربون، يقلعون، ويرهبون...

يرعبهم بعد كل هذه السنين، يقتلهم أن شخصاً جديداً جاء إلى هذا البيت متجاوزاً كل هذا الحصار.

ليلة طويلة جداً
مجدل الهندي

«تصبحين على خير»، أجبتها بلغة عبرية ساذجة، ثم أسرعتُ بتحريك جسدي إلى الناحية الأخرى لمحادثة نفسي بعد عناء سفر طويل.

ماذا أفعل هنا؟ هل يعقل أن الفتاة التي تنام على بعد سنتيمترات مني إسرائيلية؟ هل رميت مئة سنة من الاحتلال مقابل جولة تعليمية في أوروبا مدفوعة التكاليف من قبل الجامعة؟ هل أنا ممن سوف يطلقون عليهم اسم «المطبعين العرب»؟ هل سينشرون الصور لفتاة فلسطينية ذات حجاب بين جمع من الطلاب الإسرائيليين؟ لماذا لم أفكر في ذلك حين قمت بكتابة رسالة مطولة لإقناع الجامعة بأسباب حماسي للسفر؟ لا أفكر عادةً بالسياسة، لكني أبداً لم أكن من أصدقاء الاحتلال. لطالما رددت هذه الكلمات سراً وعلانية، مقنعة نفسي إلى حد ما بمصداقيتها.

وقعت عيناي بغتة على حذائي القابع بزاوية الغرفة. تذكرت حينها كيف أنني قمت بشرائه من أحد المتاجر الإسرائيلية الإلكترونية بسعر أرخص من المحلات التجارية في المدينة. كنت سعيدة لاقتنائه بهذا السعر الزهيد، هذا بالإضافة إلى إمكانية التوصيل المجاني حتى باب المنزل دون عناء الذهاب إلى السوق. حولت نظري إلى السترة الصوفية الملقاة على الكرسي. تذكرت أنني قمت بشرائها من «بسطة ملابس» داخل الحرم الجامعي. خلال ثوان معدودة كانت العجوز العبرية قد أقنعتني بصوتها

عالي النبرة وبابتسامة. لم يكن لدي وقت لأشك بصدقها، بجمال السترة وملاءمتها مع لون حجاب الرأس الذي أضعه. ورغم عدم امتلاكي للنقود، وجدت نفسي أخرج بطاقة الاعتماد، موقعة وصل الدفع، مكملة طريقي إلى محاضرة بعنوان «معاداة السامية».

أغمضت عينيّ مطرقة السمع لصوت أنفاس الفتاة النائمة بجانبي وسألت نفسي مجدداً:

أيعقل أنني غارقة في التطبيع لدرجة سلبت مني شعوري بالذنب؟ أخذت بتفحص الغرفة، فإذا بسلسلة ذهبية قد تعلقت بآخرها النجمة السداسية المعهودة ملقاة بإهمال على الطاولة الوحيدة في الغرفة. تملكتني صدمة خفيفة ازداد أثرها بارتجاج هاتفي فجأة. مددت يدي تحت الوسادة لسحب هاتفي النقال، فقد وصلتني رسالة صوتية من زميلي اليشع، الذي يشاركني إحدى المحاضرات في الجامعة، يطمئنني بأنه قد أتم كتابة المناظرة القانونية، وليس ما علي سوى قراءة الادعاءات يوم العرض.

ابتسمت لنفسي وقلت: كم هو لطيف اليشع. لقد أعفاني من مهمة قراءة مقالات طويلة لقوانين تم صياغتها بلغة جهنمية.

تقلبت في السرير كثيراً. عُدت أسأل نفسي: يا ترى، هل ما زالت الفتاة بجانبي مستيقظة؟ هل تراودها نفس أفكاري، أو لربما ورد بخاطرها محاولتي لاغتيالها؟ تذكرت حينها كم كانت هذه الفتاة لطيفة معي رغم عدم تبادلنا الحديث مطلقاً خلال المحاضرات. كانت دائمة التبسم في وجهي لسبب أجهله، كما أنها كانت تهمس لي بكلمات الحظ الجيد في كل مرة أقف فيها أمام الطلاب لأعرض رأيي المرتبك بلغة عبرية مرتبكة يفهمها معظمهم ما عداي.

مرت في خاطري لمحات من سنوات ماضية عملت فيها جاهدةً على

تعلم هذه اللغة، لكن دائماً ما كان هناك شعور خفيّ بالخيانة يطفو فوراً عند استمتاعي بالتطور في صياغة الكلمات، فما انفك يعيق كسر حاجز التوتر. تذكرت كم ساعدتني معلمة اللغة شيرا بشكل جدي في ممارسة اللغة حين كنا نلتقي في مقهى الجامعة، نتحدث في أمور الحياة. يبدو أن نميمتي العفوية عن هذا وذاك واهتمامها بالاختلافات الدينية والاجتماعية قد جذب اهتمامها، فأصبحنا نلتقي بشكل منتظم حتى نهاية السنة الدراسية.

ذكّرت نفسي بضرورة شكرها، فقد حصلت على منحة دراسية بفضل رسالة توصية منها. يا للمفارقة الحزينة، فقد طلبت هذه التوصية من أساتذتي في الجامعة التي حصلت منها على لقبي الأول. وعلى الرغم من تفوقي الدراسي آنذاك، لكن الرفض كان حليفي بحجة أنهم لا يستطيعون مراسلة جامعات الاحتلال تحت شعار»لا للتطبيع».

بالطبع، لم أخبر زميلي أحمد بحصولي على المنحة، فأنا متأكدة أنه سوف يُحدث في رأسي صدعاً بأسئلته اللائمة عن كيفية الحصول على هذه المنحة، وسبب عدم إخباره بهذه الفرصة، لكني متأكدة أن تبريراتي لن تعجب ذوقه الخاص. يا له من سمج، رغم أنه الطالب العربي الوحيد الذي يشاركني مقاعد الدراسة. عندما التقيته أول مرة عرفني بنفسه، فوجدته هدية الله في هذا العالم الذي تضيق علي غرفه رغم اتساعها، ورفيق هذا الصرح الذي أشعر فيه بالغربة رغم سماع آذان المسجد الأقصى من قلب ساحاته. لكن مع مرور الأيام، شعرت أنه يستغل عاطفة العروبة التي بيننا لنسخ الأبحاث والامتحانات.

علا فجأة شخير الفتاة التي بجانبي، فأدركت عندئذ أنها مستغرقة بالنوم، ولا شيء مما يدور في خاطري قد أرق مقلتيها. تقلبت في السرير ثم أغمضت عينيّ مسترجعة الأحداث التي رافقتني صباح هذا اليوم، بدءاً من احتجازي لمدة ساعة كاملة في المطار، والتفتيش المهين من قبل

موظفة إسرائيلية ذات لكنة فرنسية لا تخفي ملامحها الإفريقية. ومع كل محاولات إقناعها بأنني طالبة مسافرة في رحلة تعليمية مع جمع كبير من الطلاب الإسرائيليين، إلا أن لكنتي العربية وحجابي الأبيض ووثيقة السفر المؤقتة لم تجعل الأمر سهلاً أبداً. أخذت ألعنها وألعن دولتها في سري، خوفاً من أن يفضح صوتي سخطي. بالطبع لم ينسوا إلصاق رقم ٦ على جواز سفري الذي يشير إلى أقصى درجات التفتيش عند كل محطة في المطار، حتى أنهم لاحقوني وأنا أخطو باتجاه باب الطائرة. أحسست بنظرات الركاب الحارقة متوجهة إلي متسائلة عن سبب إيقافي، فبدأت بالتعرق من شدة الإحراج. لمحت عدداً من زملائي المشفقين علي ينتظرونني عند مدخل الطائرة لحظة تحريري من أيدي الموظفين. أخذ بعضهم بالتهوين علي بأن هذه إجراءات عادية ليس لها أي صلة بالعرق أو الدين أو القومية، بل بشركة الطيران. لم أدر إن كانوا يبررون لأنفسهم أو لي. بحثت عن مقعدي في الطائرة متمنية أن أغمض عيني علي أنسى السويعات السابقة.

تجولت في أرجاء الغرفة لأبحث عن بطانية إضافية، فالطقس بارد ولا يوجد نظام تدفئة، فلم أجد شيئاً. عدت إلى سريري، ثم تناولت كتاباً كنت قد بدأت بقراءته في الطائرة، لكنني لم أفلح بقراءة سوى بضعة صفحات، فقد استغرقت في الحديث مع زميلتي تمارا التي كانت جالسة بجانبي في الطائرة. أخبرتني أنها هاجرت مؤخراً إلى إسرائيل. لفت انتباهي وجهها الأسمر الذي يشبه ملامح الكثير من الفتيات العربيات إلى حد لا يتناسب مع لكنتها الروسية الطاغية، فسألتها: من أي البلاد أنت؟ فأجابتني: من تركمانستان. رفعت حاجبي متفاجئة، ثم سألتها عن سبب هجرتها، فاعترفت بأن وضع عائلتها المادي سيء ولا تستطيع دفع تكاليف التعليم، فتذكرت أصولها اليهودية ودولتها إسرائيل التي تتكفل بتأمين كل ما يحتاجه المهاجرين الجدد. دفعني الفضول لسؤالها إن كانت تمارس الطقوس اليهودية، فأومأت بالنفي، فلا وجود لمجتمع

يهودي في بلدها المنشأ، فوالدها مسلم، وأمها يهودية، أما هي فلا تؤمن بوجود الخالق!

تردد حديثها في رأسي، هل فتاة تركمانستانية تتعثر في تحدث العبرية حصلت على كامل حقوقها كمواطنة يهودية خلال أسابيع معدودة من وصولها إلى أرض الميعاد، ونحن، أصحاب الأرض، ننتظر شهوراً غير معدودة لحجز موعد في وزارة الداخلية لتغيير وضع الحالة الشخصية أو تجديد وثيقة السفر أو حتى إضافة عنوان الصندوق البريدي. تذكرت حينها أنني حتى الآن لم أقم بتغيير حالتي الشخصية إلى متزوجة!

أخفيت وجهي تحت البطانية، فقد هبت نسمات هواء باردة من نافذة الغرفة. أمسكت هاتفي مجدداً لتصفح الفيسبوك، فلاحظت وجود رسالة نصية معلّقة. قمت بفتحها فإذا بها شارون، إحدى زميلاتي المرافقات لي بالرحلة ترسل لي تحية، فأجبتها: أهلاً.

ردت علي فوراً وكأنها تنتظر إجابتي: هل ما زلت مستيقظة؟

أجبتها: نعم.

سألتني: أنا في البهو السفلي، أيمكننا شرب الشاي معاً؟

لم أفكر مطولاً، فأجبتها: لا مانع، فأنا لا أستطيع النوم.

قابلتها في الطابق الأرضي، وقد كانت بالفعل قد حضّرت الشاي. كانت برفقتها زميلة أخرى لنا أسمها رونيت. القتا علي التحية، ثم جلسنا نتحدث عن الرحلة والجامعة والكثير من الأمور الحياتية.

أخبرتني رونيت أنها من أصول عربية، فوالدها من حلب وأمها من طبريا. سألتها إن كانت تجيد العربية، فهزت رأسها بالنفي رغم إجادتها لأربع لغات أخرى. فكرت لوهلة: لماذا معظم الوافدين إلى إسرائيل من شتى الدول يحافظون على عاداتهم ولغاتهم ويحرصون على تعليمها

لأبنائهم عدا القادمين من دول عربية، وكأنهم يحاولون دثر جنسياتهم العربية ويفضلون إخفاءها، فالفتاة التي تشاركني الغرفة أيضاً من أصول مغربية، لكنها لا تميز بين الصاد والضاد.

سرحت بعيداً عن حديث الفتاتين محدثة نفسي مجدداً: بالفعل، ماذا يحتاج أبناء العم من العربية عدا الشتائم وكلمة «والله».

شعرت بسكون غريب، فإذا بالفتاتين تنظران باتجاهي، توجهان إلي سؤالاً لم أسمعه، فاعتذرت عن سرحاني ضاحكة.

أكملنا حديثاً روتينياً مليئاً بالتثاؤب، قطعته رونيت مستأذنة للذهاب إلى النوم، فبقيت وحدي مع شارون.

باشرتني بسؤال مباغت: هل أنتِ متزوجة؟

أومأت برأسي بالإيجاب، فأضافت بتلقائية: أبحث عن فتاة للزواج.

شعرت بثقل في رأسي، فلم أستطع التمييز إن قالت «فتاة» أو»فتى»، ففي اللغة العربية الفرق بين الكلمتين لا يزيد عن حرف في نهاية كلمة «فتاة»، فلم أصدق أذنيّ.

تابعت لتأكد شكوكي: أخاف من الحياة الزوجية رغم أنني أبحث عن فتاة مناسبة، حبذا إن كانت عربية. أتعلمين، لم أقابل حتى الآن فتاة فلسطينية مثلية الميول. أتساءل إن كنت تستطيعين مساعدتي!

رددت في ذهني: اكتملت الصورة الآن! تحشرج صوتي فافتعلت سعالاً: أنت تعرفين أن هذا الأمر غير مقبول دينياً ولا اجتماعياً لدينا، لذلك لا أعتقد أنك سوف تقابلين فتاة فلسطينية تناسب ميولك، عدا عن الموقف السياسي، سوف يجعل الأمر مستبعداً جداً.

صفعتني بقولها: لا تقلقي، أنا متأكدة أنها مسألة وقت، فسوف تصبح

المثلية مقبولة في كل مكان. أما بالنسبة للوضع السياسي فهو الداعم الأكبر لها، فقد جعلت منا شعباً واحداً، أليس كذلك؟

تجمدت الحروف في فمي فلم أستطع الرد. ابتسمت لها: لا بد أن نخلد للنوم، فغداً ينتظرنا يوم شاق. ألم تلق نظرة على مسار الرحلة؟ وافقتني بنفثة دخان من سيجارتها.

صعدت إلى غرفتي مرهقة. قمت بضبط منبه الهاتف على موعد الإفطار، فهناك سويعات قليلة للنوم، لكن مفعول النسكافيه الذي احتسيته مساء كان لا يزال سارياً، فعدت أحادث نفسي مجدداً، ماذا أفعل هنا؟

اهتز هاتفي النقال مجدداً، فإذا به اتصال من زوجي. أخذت نفساً عميقاً وقلت: ما أطول هذه الليلة. حاولت خفض صوتي حتى لا أزعج شريكتي في الغرفة، فسألته بعد التحية: لماذا لا زلت مستيقظاً؟

أجابني بضيق: هناك بعوضة تحلق حولي منذ أن وضعت رأسي على الوسادة. وأنتِ؟

لم أدر بماذا أجيبه، فسكتّ.

تابع كلامه متحمساً: هل تعلمين، هناك تنزيلات هائلة في محلات فوكس*. اشتريت الكثير من الجوارب والملابس الداخلية لكلينا.

ابتسمت لنفسي ابتسامة واهنة، وطأطأت رأسي مجيبة: حتى ملابسي الداخلية!

* علامة تجارية إسرائيلية

من الشتات إلى الشتات
ديما السيلاوي

انْدَفِعُ بقوة إلى الكتابة بعدَ غياب طويل. رغبةٌ ملحةٌ وموجعة، وصداع أعلم أنه لن يفنى إلا بعد سماع ذبذبات قلم على أوراق بيضاء. فاليوم تاريخي، انتظره منذ أن وعيتُ الانتظار. أنتقل من ضفاف الشتات إلى الضفة المحتلة. كم من الأصدقاء والأقارب يحسدونني وأنا أحقق حلمهم وحلم جدّي الذي غادر العالم متمنياً أن يمتلك اللحظات التي أعيشها الآن.

تبدأ الرحلة من الأردن على صوت مباراة مزلزل بين مصر وروسيا ينبعث من مذياع السيارة. يصيح المعلق بأعلى صوته على اللاعبين تشجيعاً، وعلى الكرة لطواعيتها وحسن سيرها وسلوكها: «خطيرة يا صلاح، خطيرة».

تمشي السيارة حسب مزاج سائقها المتهور الذي لا يكف عن التأفف واستخدام الزمامير وشتم سائقي السيارات البطيئة، فيما يتشاجر أخوتي للجلوس بجانب الشباك، فقد ملأتهم قصص والديّ بلهفة وفرط نشاط فظيع. قصة ترددت على مسامعي عشرات المرات ولا تفتأ تتكرر. تبدأ بنزوح أبي في عمر السنتين من قرية السيلة عام ١٩٦٧ إلى أحضان إخوته الأربع في حافلة الهروب، ثم إلى أحضان والده في الأردن. يأتي زواج أبويّ بعدها بخمسة وعشرين عاماً في يوم يصادف ثالث أيام حربِ الكويت،

ثم اللجوء إلى الأردن مجدداً، فالإمارات، حتى آخر لجوء إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

لطالما أزعجتني قصة الشتات تلك لسبب لا أيقنه. ربما لأنني كنت أشعر أن قصة اللاجئ أصعب وأكثر مأساوية مما صوراه، أو لأنني كنت مقتنعة أن لجوءنا برغم صعوبته لم يجعلنا في مواجهة يومية مع الموت كأقراننا الذين بقوا. أمّا تجربة الشتات وخوف والديّ المفرط من أن يرغب المستقبل في تكرارِ الماضي، فهي تجربة شعوب كاملة تعيد نفسها آلاف المرات كل يوم.

يعودُ أخوتي إلى الشجار.

فجأة، أرى لواءً يرفرف على علو شاهق بالأبيض والأزرق. كلما اقتربنا يعلو أكثر، وتُحشر أنفاسي التي لم تعد تجد متسعاً في رئتي أكثر. تهربُ بعض الدموع من عينيّ وأستذكر قولَ محمود درويش: «أتيتُ ولكني لم أصل... وجئتُ ولكني لم أعد».

الأصوات من حولي تتحول إلى أسراب تغزو جميع أنحاء جسدي. تبدأ من منابت شعري، تملأُ صدري، تقبض على معدتي، ثم تهربُ إلى أخمص قدمي. تُفقدني الإحساس بالأشياء، فأكون لا مرئية، هلامية. أتماشى مع تلك الحالة، أستسلم دون انزعاج.

نصعدُ الحافلة للذهاب إلى الحدود الإسرائيلية.

أرى شاباً ذا شعر وعينين أفتحَ من أن تتلاءم مع لغته العربية الممتازة، باستثناء حرف الراء الذي عجز لسانه إلا عن تفخيمه.

ينظر إلى جوازات سفرِنا منتهيةِ الصلاحية ويقلبها من جميع الجهات كأنها سقطت من مجرة فضائية. يتمعن بصورِنا واحداً تلو الآخر، ويقارنها بما آلت إليه أشكالنا بعد عشرين عاماً. يأتي دوري فأرفض أن

أنظر إليه. شجاعتي استمدها من حالة الإنكارِ التي أحاول ألا أخرج منها. يومئ لي بيده أن اقترب، فأقترب، وعيناي مثبتتان على نقطة في المدى تزيد شكوكه.

يصيرُ الموقف أطول بكثير مما أحتمل، ولكني لا أنزعج ولا أشعر برغبة في حسم الموقف كعادتي. من زاوية عيني، أرى قلقاً يرتسم على وجه أمي كأنها تأمرني وترجوني أن أجامل.

أعاند رغبة الجميع بتحويل الموقف إلى تبادل اعتيادي.

ببطء أحوّل نظري باتجاهه متفادية النظر مباشرة إلى عينيه. أقترب بجذعي نحوه، فأشعر بملامحه حادة متشككة. أتمالك نفسي عن سؤاله: «ما قصتك؟ لم أنت هنا؟».

ينبعث صوت معلق المباراة من جانبه فيبتسم. ينظر إلى مجموعة شبان خلفي يتابعون ذات المباراة ذاتها، ويقول مستهزئاً: «هذا ثاني هدف... أين محمد صلاح؟»، يرفع قبضته في الهواء باعتزاز ويضحك.

يطلب مني الهوية و»التصريح». ينظر ويتكلم معي بحذر، فكره، فخوف، فتعال، فاستحقار. لا أستاء، فأنا تقريباً غير موجودة. يعيد إليّ أوراقي الكثيرة التي ما عدتُ أميزها من كثرتها وتعقيداتها...

لو أن للإنسان ورقة واحدة أو جواز سفر واحداً أو وطناً واحداً!

ما أن أدرك أنه يشاهد المباراة مشجعاً بلده الأم، حتى يأمرني زميله أن أفرغَ جيوبي بالكامل. يفتش بين أشيائي ويفتح دفاتري بكل حرية، ثم يضعها جانباً كأنه لا يقتحم حياتي وخصوصياتي. يأخذ بعدها حاسوبي، يقلبه من جميع الجهات ثم يعرضه على جهاز دخيل مثله.

أتقصد عدم تشكره، ولكن ابتسامة لا أدري مصدرها تكاد تفلت من شفتيّ. أهو خوف أم نفاق أم رغبة في تفادي المشكلات؟ أؤنب نفسي.

كيف ابتسم له متناسية مائة عام من الاحتلال؟ كيف ينفيني طويلاً وابتسم له شاكرة اضطهاده لي؟

ينظر إليَ مرة أخرى فأتوجس. هل سمع نجواي مع نفسي؟

أخيراً، أصل أنا وعائلتي إلى أريحا، وفي استقبالنا ضجيج أصوات متداخلة لسائقين يهتفون كخلية نحل: «رام الله؟ رام الله؟ رام الله؟ رام الله؟».

نركب إحدى سيارات الأجرة المتوجهة إلى رام الله مع سائق ستينيّ لا يسمح لي بالاختلاء بأفكاري بسبب أسئلته المتواصلة عما أعادنا بعد كل تلك السنين. يسأل محدقاً بنا عبر المرآة الأمامية.

في لحظة صمت نادرة، ينفجُر صوت المذياع: «يمشي صلاح! يمشي صلاح وجوول! الهدف التاريخي! الهدف التاريخي!».

أسأله: «ألم تنتهي المباراة بفوزِ روسيا؟»

فيجيب: «بثلاثة أهداف مقابل هدف، ولكنهم يعيدون إذاعة الهدف المصري من ضربة الجزاء».

كنزة
وفاء سلام

صوت المطر الذي يقرع النوافذ يوقظ في داخلي الكثير من الأسى النائم.

لطالما أصابني المطر بالحزن الشديد، ولطالما شعرت بقطرات المطر وكأنها عبرات مريرة، وبأنها دلالة على أن في الكون ألماً كافياً لجعل السماء تبكي!

١

كم كان ذلك اليوم مختلفاً، مع أنني ظننته يوماً آخر من التظاهر بأن حقيقة الأمور هي كما تبدو تماماً.

كنا نقطن بيتاً جميلاً في مبنى لا يسكنه إلا الأثرياء الذين ترى في عيونهم حظاً كريماً، ولدينا أربعة أطفال يلبسون ثياباً ثمينة، ووظيفتان أنيقتان؛ واحدة لكل منا. بدونا كمن يمتلك هذا العالم...

عندما أقبل مساء ذلك اليوم، عاد ثابت كعادته إلى المنزل.

كان يلصق نظراته ناحيتي فيما قصدت أن أبدو منفرة. قلت لنفسي حينئذ: «إن لم يفقد أعصابه لسبب أو لآخر، أرجو ألا أثير رغبته ثم أضطر إلى مشاركته جسدي كغانية حمقاء».

بعد أن تناول عشاءه وأملت أن تطلق عيناه سراح جسدي، تململ قليلاً ثم طلب مني أن أرافقه إلى غرفة النوم، فتبعته مدركة أن مظهر شعري

المبعثر وملابسي القبيحة لم يجديا نفعاً.

سولت لي نفسي أملاً متبقياً قبل أن لحقت به. حاولت المماطلة قليلاً، لكنني سمعته يناديني، فقررت التوقف عن المحاولة. كان علي أن أستجيب له حالاً لأنه وإن غلبه النوم فسوف يستيقظ باكراً لحاجته في كل الأحوال.

كانت الإضاءة خافتة جداً. بعد أن كنت قد اقنعت نفسي بالذهاب إليه، قلت له:

«أنا آسفة، سمعتك تنادي».

لا جواب.

عندما اقتربت منه لم يكن يشخر كعادته، فأمسكت بكتفه أحركه، لكنني شعرت بثقل. عدت أكلمه وأهز كتفيه، لكنه كان جامداً بلا حراك.

لطالما ظننت أن ثابت بمثابة قدر خالد، وكنت أظنه رجلاً خارقاً لا يشبه الآدميين الطبيعيين، فهو قوي لا يضعف أبداً أمامي ولا يشعر بشيء. كنت أؤمن بأنه لا يمكن أن ينتهي. من الممكن أن يصيبه خطب ما كما ظننت في تلك الليلة، لكنه سيعود من جديد لأسباب كثيرة، أهمها أن قدري المحتوم أن أعيش عالقة معه.

أخذت أصرخ خائفة من منظره الساكن وسط الظلام، وخرجت مسرعة من الغرفة وأنا موقنة أنها ذبحة قلبية، وعليّ أن أطلب المساعدة.

في طريقي إلى الخارج أدرت مقابض غرف الأطفال موصدةً الأبواب، فليس هناك حاجة لإفزاع الصغار. كنت كلّي ثقة أن ثابت سيكون بخير فور مساعدته.

٢

أذكر كم كان مباغتاً لي عندما ضربني لأول مرة. كنت حينها أحاول الحصول على اهتمامه، فيما كان هو مشغولاً بأشيائه الأكثر أهمية. كان يريد أن يستعجلني في الخروج، وأنا لم أستجب له بسرعة. ولما استقرت يده تصفع وجهي، لم أستطع تصديق ما حدث. ذهبت مسرعة أرتدي ملابس الخروج وأنا أردد «لا يمكنني الاستمرار معك بعد الآن»، لكنه لحق بي فوراً، وأخذ يعتذر قائلاً إنه لم يكن يقصد ذلك، وإنما كان يريدني أن أصغي إليه. وأخذ يتوسل إلي أن لا أترك المنزل، ويعدني أن ذلك لن يتكرر ثانية. كنت حاملاً في طفلتي الأولى في ذلك الوقت. شعرت بأنه من الممكن أن يكون صادقاً فعلاً وأنه لن يعيدها. لم أجرؤ على إخبار أي أحد وأنا أفكر في كلام الناس وفي الطفلة التي لا تستحق أن تفقد فرصتها في عائلة سعيدة لمجرد صفعة واحدة وأخيرة!

خلال ثلاثة أشهر من ذلك الزواج كنت قد أيقنت بأنني ارتكبت أكبر خطأ في حياتي. لم يكن هناك أي انسجام بيننا، والحب الذي كنت أظنني أشعر به كان مجرد افتتان فتاة بأول شاب يظهر في حياتها. لم نكن نجد بيننا أي شيء مشترك، ولم يكن بمقدورنا إجراء نقاش حقيقي بخصوص أي شيء. فكنت إما أن أتكلم بالطريقة التي تعجبه وتتماشى معه، أو كانت لتكون بداية جدالات دراماتيكية في كل مرة.

بعد أن صُعقت من تكرار تلك الحادثة، وكانت قد أصبحت دون أسف، قلت لنفسي: «حسناً، حان وقت الطلاق».

إنها الحقيقة. ما كان ينقص هو الحقيقة، حقيقة الجميع... أنا أردت مثل أي أحد أن أبقى حقيقية مع نفسي، ألّا أكذب وألّا أتصنع. فتوقفت عن محاولة إرضاء ثابت بالتظاهر بأنني سعيدة معه. لم أكن أشعر بالسعادة معه لأسباب كثيرة، وكان ذلك لا بأس به بالنسبة لي، لكنه كان ذا بأس شديد بالنسبة له.

وظل ما بدا ناقصاً منذ البداية ناقصاً حتى النهاية.

٣

بعد موت ثابت، أخذت أفكر بما سأفعله، مقاومةً بذلك رغبة الأهل والعائلة بأنه عليّ العودة إلى بلدي، والعيش بالمال الذي تركه لي ولأولاده، خاصةً وأنه كان أكثر بكثير مما ظنوا جميعاً. لكنني وبعد سنوات طويلة من البعد عن عائلتي للتمكن من تقبل حياتي مع ثابت، بعيداً عن الخزي الذي كنت أشعر به حولهم، كنت قد فقدت علاقتي بهم، ولم يعد لدي ما أشاركهم به. والمال الذي ورثته ضمن لي الاستقلال عنهم جميعاً. وحفاظاً على حريتي التي لطالما أردتها، اخترت أن أبتعد عنهم جميعاً.

إنه موسم الشتاء الآن، ولا زال المطر يثير الشجن ويجتاحني بلا رحمة، كفراق حب كبير أو كوداع بلا أي مبرر.

كنت وحيدة تسكنني ترهات لا تعد ولا تحصى، حتى التقيت بآسر.

بدا آسر منذ البداية مألوفاً، ذلك الشخص الذي تشعر أنه سبق لك لقاؤه في مكان آخر منذ زمن بعيد. بدا متماسكاً واثقاً من نفسه في منتصف الأربعينات. كان يستمع إلي، وأنا لم أعتد أبداً أن يقضي أي أحد معي وقتاً بغير غاية. كنت منبهرة بثقافته. أنهى تعليمه في الخارج، وكان الحديث إليه غاية في السهولة والسلاسة.

بدون الكثير من التفكير اخترت ولأول مرة في حياتي أن أتبع قلبي. هناك شيء مختلف في هذا الرجل. هو طبيعي وصادق جداً، ومن الصعب أن تجد أحداً هكذا، فيما أقرب الناس إلي لم يكونوا بهذه النزاهة معي. فأنا من تجربتي مع ثابت كنت أرى كل الناس ملوثين بالشر الموجود في هذا العالم. كل الناس يرتدون الأقنعة. كلهم يطالبونك بأن تتكلم بطريقة معينة وتتصرف بطريقة معينة، ولا يمكنهم تقديري كما أنا.

وقف آسر إلى جانبي مسانداً فيما كنت أواجه عائلتي التي كانت تريدني

أن أترك عملي وأعود إلى بلدي حيث يسكن أهلي وأهل أولادي، لأن المسؤولية التي أصبحت تقع على عاتقي صارت كبيرة ولا يمكنني توليها لوحدي.

أصبحت أشعر أني قادرة على التعامل مع الجميع. لن أشعر بالضعف أو قلة الحظ، فأنا أستحق الحب والتقدير، ولا أشعر بالأسى على أطفالي، وأؤمن أنهم أصبحوا في مكان أفضل.

إنها قوة الحب. قوة آسر طغت على كل القوى بما فيها قوة المنطق.

ذلك الرجل الاستثنائي بدا كل ما كنت أحتاجه في حياتي؛ مليئاً بالحياة، حالماً، داعماً لي ومفرط الحساسية. كانت كمية الحنان التي تقطر من حضوره تجعلني مأخوذة به بعد مغادرته المكان بساعات. كلما جلست معه أكثر، كلما زادني دهشة. كنت أظن بأن أشخاص مثله لا يوجدون إلا في عالم خيالي، ذلك العالم الذي أمضيت معظم وعيي أعيش في داخله لوحدي.

رويت لآسر كل شيء عن حياتي السابقة، واستمع إلي بدون إطلاق أية أحكام. منحني القوة والصبر، وكان صخرة لي في تلك المرحلة الانتقالية من حياتي.

كنت أثق بآسر ثقة عمياء. كنت أحدثه عن أي شيء، حتى علمت أنه لا يريد الزواج مني.

- أنا سبق لي الزواج، ولا يمكنني الزواج بك.

- لماذا أنت معي إذن؟ إذا كان ما هو بيننا ليس في طريقه إلى الزواج، فلا يجب أن نبقى معاً بأي حال. أنا أريد الزواج ولا أريد الحب فقط.

- أنا آسف لا يمكنني الزواج بك.

- وماذا عن الحب؟

وسط كل التفسيرات والسيناريوهات داخل وخارج عالمي، لم يخطر ببالي أبداً أنني كنت أتعامل مع ثلاثة رجال في آن معاً.

بعد أن تركت آسر، عاد ثانية وهو يعتذر عن تردده في الارتباط، وأخبرني بأنه لا يمكنه العيش بدوني. واتفقنا أن نبني عملنا الخاص معاً، وأن نخطط لمستقبلنا سوية.

افتتحنا فلفل... مقهى صنعناه بعفوية وتلقائية، فيما سخر منا الجميع قائلين: «كيف تحاولان استضافة الناس في مكان ناء كهذا».

كان آسر في مرحلة مختلفة من حياته. للمرة الأولى يستطيع أن يستقل مادياً ويثبت لعائلته بأنه متميز بشكل إيجابي، بأنه متفرد ويمكنه التفوق على أقرانه بقدراته. كان فلفل بالنسبة له ليس مجرد تجربة يخوضها مع امرأة يحبها، بل كانت مغامرة مضمونة ليصبح سيد نفسه في العمل وبالطريقة التي يراها. كانت هذه طريقته في التعبير عن نفسه وعيش الحياة التي يريدها. كنت أظنها تجربة نخوضها معاً، وكان آسر يراها أساس حياته القادمة بأكملها.

بدون تردد، افتتحنا المكان الذي أصبح آخر صيحة في أوساط الشباب. كانت عائلته داعمة للمقهى. كان يخبرني دائماً بأن شراكتنا في العمل معاً تجعل ارتباطنا منطقياً للغاية، بالرغم من كل العوائق، بالرغم من وجود أطفال لدى كل منا، بالرغم من اختلاف هوياتنا بين شقي وطننا المبعثر بين الضفة الغربية والقدس.

تفجر فلفل حياة وإبداعاً. زوجان لطيفان يديران المكان ذا الطابع الفني المتواضع. أصبح المكان مسبباً للإدمان في كل المنطقة، وترك آسر وظيفته ليتفرغ للعمل فيه، فيما بقيت مترددة بشأن تركي لوظيفتي، وظيفتي التي أردتها بشدة وعملت جاهدة للحصول عليها. لكن زملائي أصبحوا

مختلفين بعد افتتاح فلفل. صاروا أكثر عصبية وشدة معي، حتى فقدت رغبتي في تلك الوظيفة. ثم إن هذه الوظيفة تمنعني من البقاء إلى جانب آسر الذي يحتاجني. عند أقرب فرصة تركت الوظيفة، وأصبحت بقرب فلفل وآسر طوال الوقت.

٤

كان قرابة الخمسين من عمره، مشتتاً وكأنه يهرب من فكرة داخل رأسه، أو أنه يتلافى ورطة قادمة كالعادة. رب عائلة وأب مثالي لخمسة أطفال. صابر رجل محبب عند الجميع في العائلة. طيبته وقدرته على تقبل الآخرين تجعلانهم يتغاضون عن كسله معظم الأحيان. لكن كونه يبدو مقتنعاً بأي شيء تقوله له يجعل من السهل جداً عليك أن تشعر برغبتك في مساعدته طوال الوقت. في الواقع هو متفهم وسهل التعامل معه لدرجة أنه لا يفكر بنفسه أبداً. هو على استعداد أن يمنحك أكثر مما يمنح نفسه طوال الوقت. كان صابر يشعر بالسعادة فقط عندما يتسبب بسعادة من هم حوله.

في شبابه كان جامحاً، يفعل ما يحلو له. وعائلته كانت دوماً تحبه من فرط طيبته، وذلك جعلها تشعر بالحاجة إلى حمايته دوماً. كان أفراد العائلة يتوقعون أن طيبته وبراءته ستجعلانه عرضة للابتزاز والمراوغة. لم يكن أحد فيهم يخطر بباله أنه عميق التفكير ولديه القدرة على التمييز. لكنه مخلوق قلبي، قلبه يدله على الأشياء. لم يتمكنوا يوماً من احترام خياراته أو حكمه على الأشياء، لأن حبه لهم لم يسمح له يوماً أن ينفذ رغبته المطلقة مهما كان مقتنعاً بها.

عندما عاد صابر إلى عائلته بعد سنوات من التحرر في الغربة، كان في الثلاثينات من عمره. كانت العائلة تحب أن تراه مستقراً وعادياً كبقية رجال العائلة، كأخوته وككل الشباب الذين في عمره. كان صابر في تلك الفترة متخماً بمغامراته وتجاربه المتعددة، وأراد أن يسعد العائلة ويدخل

في أجوائها بعد تقززه من الغربة والوحدة، فوافق على الزواج، غير مهتم بمواصفات العروس المنتظرة. أرادهم أن ينتقوا له إياها.

كانت العائلة كالعادة مستعدة لمساعدة صابر؛ «ابنة خالك البريئة الجميلة». أحب صابر الفكرة، فهي من جهة أمه. تعيش في الخارج، وبلا تجارب سابقة، وتبدو غنية. كان صابر معتمداً على العائلة مادياً، وهي عائلة مالها مشترك، وكان يقدس أمه ويستمتع بإسعادها أكثر من أي أحد آخر في هذه الدنيا.

مع أن العروس لم تكن كما توقعها، ولا كما أكد له الجميع، بقي يستمع إلى تبريراتهم في هذا الخصوص: إنها لا تزال صغيرة في السن، وعليك أن تكون صبوراً. كن محباً لها وحنوناً، وستصبح كما تريد تماماً.

بعد زواجه بفترة طويلة، ولأن صابر كان يمل من تكرار المحاولة، اقتنع بأن هذا هو الزواج في واقعه، وعليه أن يتقبل هذا الواقع.

في الحقيقة، صابر لم يقتنع يوماً بأن الزواج يعني الحب أو الانسجام، إنه فقط لإنشاء عائلة، لإرضاء العائلة! بالنسبة لصابر، إن كان الكل سعيداً، فسيكون سعيداً بشكل تلقائي ... «طالما أنني أشبه الآخرين، فسأكون بخير».

كان صابر يشعر بحاجته إلى عائلته دائماً، وخصوصاً من ناحية مادية، لكن المشكلة الحقيقية كانت حاجته إلى رفيق حياة. كان يحتاج إلى امرأة يشاركها قلبه، روحه وجسده، لكن ما يدريك أنت يا صابر، العائلة تدري أكثر منك.

كان صابر رجلاً واقعياً ويحب الأطفال كثيراً. أصبح لديه أطفال. الحياة جميلة، ولديه حريته الخاصة التي يعيشها دون اعتراض من العائلة أو الأولاد أو أمهم. ومقابل أنه لا يطالبها بأي شيء، هي لا تطالبه بأي شيء.

كان انفصالهما يمنحه حياة جديدة، يختار مغامراتها وشخوصها كما يحلو له.

لم أنتبه لوجود صابر في أول مرة قابلته فيها. كان جزءاً من عامة الناس، حتى كاد أن يكون غير مرئي.

لم يخطر ببالي أبداً أن صابر على وشك أن يصبح جزءاً من شراكتي مع آسر. صابر الذي لا يمكنه أن يتصرف لوحده، عليه أن ينتج الكثير من المال وعلى وجه السرعة.

لم أكن أخاف شيئاً طالما كان آسر معي فيه، لكنه كان يتركني مع صابر طوال الوقت، صابر الذي أصبح شريكاً يسيطر على فلفل.

كان آسر يريد مني أن أظل أحارب لأجل هذا الحب لوحدي.

لم يعد بإمكاني البقاء إلى جانب آسر بوجود صابر مع حاجته هو وفلفل لوجودي بجانبهما، فطلبت منه أن أترك فلفل لصابر ويبقى هو لوحده. لقد رأى آسر ذلك تخلياً مني عنه وعن كل ما كان بيننا، فهددني بالرحيل.

رحلت أنا قبله، ولم ألتفت ورائي أبداً.

لا أمانع أن تواصل السماء بالبكاء وتنتحب. لم أعد قادرة للسماح لأي متطفلين بالدخول إلى عالمي بعد اليوم والعبث بخيالاتي. ما زال قلبي مزدهراً بالحب الذي عرفته من حبي وقبولي لنفسي، وهو أهم من أي حب من أي مكان آخر.

دعها تمطر، وإن لم يكن آسر من هو مقبل على هذا العالم، فلا يمكن لصابر أن يتسلل إليه بأي حال. صرت أعرف أنه ليس بآسر، ولآسر أن يتوه وأن يهزم كما يحلو له، وسيعرف طريقه إلى عالمي، طريقه هو لوحده.

الكتاب / المتدربون

لما رباح:
تتعلّم عن الصحافة وفنّ الحكي منذ عدّة سنوات، وتطمح لتعلّم المزيد عن الكتابة الإبداعيّة والحكاية البصريّة، والاستكشاف هويّتها كحكّاءة.

وفاء عبد السلام:
تعمل مديرة مركز لتعليم اللغة الانجليزية، حاصلة على شهادة في الأدب الإنجليزي ودبلوم ترجمة. تكتب منذ المرحلة الثانوية باللغتين العربية والإنجليزية، تحب الكتابة والحرية وما يحملانه من إبداع وتميز. نشرت الشعر في جريدة القدس وقصتين فازتا بجائزتي نشر: واحدة بالعربية (وطن) وأخرى بالإنجليزية (Filfil).

مجدل هندي :
حاصلة على اللقب الأول في المحاسبة من جامعة بيرزيت واللقب الثاني في الدراسات الأوروبية من الجامعة العبرية في القدس. بدأت الكتابة في المرحلة الإعدادية من المدرسة وشاركت عدة مرات في مسابقة القصة القصيرة، فازت قصتها «سجن أزلي» في مسابقة جمعية الرازي ٢٠٠٧.

رغد هلال:
طالبة في جامعة بيرزيت بتخصص رئيسي في علم الاجتماع، وتخصص فرعي في الفلسفة ودراسات المرأة. لديها شغف في كتابة القصص القصيرة التي من خلالها تسليط الضوء على المشاكل الاجتماعية في المجتمع الفلسطيني بشكل خاص، والعربي بشكل عام.

فخري الصرداوي:
يعمل في مجال القانون الدولي والعلوم السياسية. يعتبر الكتابة بمثابة عملية بناء لعالم آخر عالم ذي قوانين خاصة لكاتبه. يحب الكتابة الساخرة من المجتمع التقليدي ومن ثقافة الصوابية السياسية على حد سواء. يرغب بتطوير توظيف الغرائبية في المواضيع السياسية والاجتماعية وبالأخص العلاقة بين الشرق والغرب.

ديما السيلاوي:
تقيم بين الأردن وفلسطين والإمارات والولايات المتحدة الأمريكية. حاصلة على درجة البكالوريوس والماجستير في الصحة العامة، تعمل حالياً في معهد الصحة العامة والمجتمعية في جامعة بيرزيت. ترى في الكتابة والأدب قيامةً لأرواحنا.

أحمد أبو عيد:
طالب في العلوم السياسية. يرى أن للكلمة وقعها في أرض عاش بها نقيضين، كوّن الأدب ذاكرةً ووعياً وراح يرتبط بالقضية، فشَكَّلها وأغنته. من هنا نبدأ.

جرى تطوير البرنامج الأدبي في مركز خليل السكاكيني الثقافي لتوفير مساحة للكتّاب الفلسطينيين لاكتشاف وتطوير والتعبير عن أنفسهم من خلال التعرّض لمُختلف التّجارب والجماهير الأدبية. يستفيد هذا البرنامج من القيمة الرّمزية للمركز على شخصيتين لهما أهمية مركزية في مجال الأدب: محمود درويش وخليل السكاكيني. وقد ألهمنا ذلك لتصميم برنامج يهدف إلى تحفيز وتشجيع الإنتاج الأدبي الفلسطيني.

يتضمن البرنامج مجموعة من المشاريع على مستوى الكتّاب الصّاعدين أو المحترفين، بما فيها القراءات، والتدريب على كتابة القصّة القصيرة الأدبية، وإطلاق الكتب، والإقامة الأدبية، والمجاورات التي تجمع بين مُمارسي الأدب والشباب من مُختلف التّخصّصات للعمل على النصوص التي تتقاطع في إنتاجها لتتحول في وقت لاحق إلى أشكال فنية وإبداعية أخرى: مسرح، أفلام قصيرة، رسوم، كوميكس، أدب أطفال، وذلك بالتعاون مع أفراد ومجموعات فنية وثقافية مختلفة.